Governance in the Qur'an and Sunnah
The Quarterly Journal of
Vol. 1 ● No. 1 ● Issue 1 ● Winter 2023

The Possibility of Civilizational Becoming in the State of Istiz'af

Habibollah Babaei[1]

Received: 25/01/2023 Accepted: 18/06/2023

Abstract

Civilization is the largest system of human relations, which is realized at the global level. Now, can the oppressed decide to be civilized in a state of Istiz'af (weakness) and start the civilizational process? This is the major question in this article, in which different meanings of weakness are mentioned and then "considering people as weak" is separated from "weakening". In this view, weakness and considering people as weak are the work of the arrogant (will to impose) and weakening results from the act of the oppressed (in the will to obedience and submission) and there is no logical connection between these two. One can be oppressed but not weak, just as one can be arrogant but not strong. After explaining the nature of weakness, the origin of weakness, and the ways of weakness (such as inferiority), the types of weakness are also introduced. Among the types of weakness, in addition to intellectual weakness, economic weakness, and social weakness, emphasis is placed on "weakness in faith and righteous deed" as one of the serious and hidden elements in the civilizational process of Muslims. Finally, the issue of civilizational weakness is defined as a comprehensive weakness that includes all types of weakness, including weakness in faith and righteous deed and the level of facing this level of weakness is also resistance and standing on a comprehensive and inclusive level (civilizational resistance).

Keywords

Istiz'af, Weakness, Social authority, Faith and righteous deed, Strength and dignity, Civilization.

1. Associate Professor, Department of Civilizational Studies, Islamic Sciences and Culture Academy, Qom, Iran. Habz109@gmail.com.

* Babaei, H. (1402 AP). The Possibility of Civilizational Becoming in the State of Istiz'af. *Journal of Governance in the Qur'an and Sunnah, 1*(1), pp. 36-63. DOI: 10.22081/jgq.2023.73632

الحكمة في القرآن والسنة
مجلة علمية نصف سنوية
المجلد ١ ● العدد ١ ● الرقم المسلسل للعدد ١ ● ربيع و صيف ● ٢٠٢٣

امكانية الصيرورة الحضارية في حالة الإستضعاف

حبيب الله بابائي[١]

تاريخ الإستلام: ٢٠٢٣/٠١/٢٥ تاريخ القبول: ٢٠٢٣/٠٦/١٨

الملخص

الحضارة هي «أشمل نظام للتعاملات البشرية» التي تتجلى على مستوى العالم بأسره. لكن هل يمكن للمستضعفين مع بقاءهم على استضعافهم، أن يبنوا حضارة وتكون لهم كلمة بين الأمم المتحضرة؟ شكّل هذا السؤال اللبنة الأساسية لهذه الدراسة التي تحاول التطرق إلى مفهوم الإستضعاف من نواح متعددة مع التمييز بين «الإستضعاف» و «الضعف». فقد يؤكد هذا التمييز على أنّ «الإستضعاف» هو ما يفرضه المستكبرون على الضعفاء، في حين «الضعف» هو من عمل المستضعفين والخضوع لما يفرضه عليهم المستكبرون ولا توجد بينهما علاقة تلازم منطقية. فقد يكون الإنسان مستضعفا من دون أن يكون ضعيفاً، كما يمكن أن يكون مستكبراً من دون أن يملك شروط الإستكبار وهي القوّة. بعد التطرق إلى أنواع الإستضعاف، وأسبابه، وطرقه (مثل الإستخفاف)، ركّز الباحثون على طرق الإستضعاف وأنواعه. ومن بين أنواع الإستضعاف، كالإستضعاف الفكري، والمعرفي، والإقتصادي، والإجتماعي، تناول «إستضعاف الإيمان والعمل الصالح» بوصفه أحد العناصر الخطيرة والكامنة في عمليه صناعة الحضارة الإسلامية. وفي نهاية المطاف تطرقت الدراسة إلى موضوع الإستضعاف الحضاري بصفته استضعافاً شاملاً ويتضمن جميع أنواع الإستضعاف ومن بينها «الإستضعاف في الإيمان والعمل الصالح»، واقترحت الصمود (الصمود الحضاري) والمواجهة المباشرة على كافة مستويات الشؤون الإنسانية، كطريق للتصدي لهذا النوع من الإستضعاف الشامل الذي لا يُبقي ولا يذر.

الكلمات المفتاحية

الإيمان والعمل الصالح، الحضارة، الضعف، القوة الإجتماعية، القوّة والعزّة.

١. أستاذ مشارك في المعهد العالي للعلوم والثقافة الإسلامية، قم، إيران.
Habz109@gmail.com

* بابائي، حبيب الله. (٢٠٢٣). امكانية الصيرورة الحضارية في حالة الإستضعاف. مجلة الحكمة في القرآن والسنة فصلية علمية، ١ (١)، صص ٣٦-٦٣.
DOI: 10.22081/jgq.2023.73632

المقدمة

القضية التي تسعى هذه الدراسة التطرق إليها هي مسألة الإستضعاف والضعف الناجم عنها في العالم الإسلامي وتقييم إمكانية إنطلاق حركة حضارية في ظل الإستضعاف من منظور القرآن الكريم. وبعد أن بات المسلمون من أضعف الأمم في العصر الحديث، فهل يمكن الحديث في ظل الإستضعاف، عن إنطلاق حركة حضارية وصناعة حضارة متقدمة تواكب التطورات المضطردة؟ وهل يؤمن القرآن بإمكان القيام بعمل حضاري في ظل الإستضعاف أو الوصول إلى معرفة حضارية؟ بتعبير آخر، إن كان الإستضعاف يتضمن نوعاً من غياب القوّة وانعدام القدرة على العمل وغياب حلول للخروج من الضعف «الْمُسْتَضْعَفينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطيعُونَ حيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبيلاً» (نساء، ٩٨)، فكيف يمكن إذن الحديث عن الحركة الحضارية وصناعة حضارة حديثة؟

تتجلّى أهمية إشكالية «الإستضعاف والحضارة» بشكل أكبر عندما نسمع بين الفينة والأخرى أصوات تتعالى في إيران والعالم الإسلامي، ترفض الحركة الحضارية، بل تسخر من عزم الأمة الإسلامية للسير نحو هذه الحضارة وصناعة حضارة عالمية قادرة على مواكبة التطورات المضطردة في العصر الحديث. فهذا الإستهزاء ورفض وجود الحركة الحضارية والقول باستحالة هذه الحركة العارمة وصناعة حضارة إسلامية، يأتي نتيجة الشعور بالدونية والضعف في أوساط هذه الجماعات الرافضة للتجدد الإسلامي. فقد جنّدت هذه الجماعات إعلامها لإحتقار هذه الحركة والنيل منها بغية التصدي للصيرورة والحركة التي تطمح إليها تلك الحضارة. تأتي هذه المقالة في معرض الردّ على هذه الأصوات المطالبة بوقف هذه الحركة واستصغار المبادرات التي تنطلق في أرجاء العالم الإسلامي؛ وتحاول من خلال الآيات للردّ على النخبة المنسلخة من حاضنتها الحضارية والمروّجة للإرتماء في أحضان الحضارة الغربية والإنسياق الأعمى وراء حضارة الآخر (الغربي)

كشرط لمواكبة ركب الزمن وتطوراته المتسارعة. يبدو أنّ الردّ القرآني على هذه الإشكالية العويصة يمكن أن يعزّز نفسيات المستضعفين في العالم الإسلامي ويشحذ الهمم في قلوب الجماهير المضطهدة ويستنهض قواهم للقيام بوجه كل من فتح باب الأمّة على مصراعيه في وجه كل من هبّ و دبّ لكي يعيث في أرض الإسلام فساداً ويستضعف أبناء هذا الدين الحضاري العظيم. تسعى هذه الدراسة أن توقد جذوة الأمل في قلوب أمّة مقلوبة على أمرها وقد استضعفتها الأمم والشعوب، وتشعل هذه الجذوة الخابية والموشكة على الزوال، لكي تنير بها عالم الحضارة من جديد وتصنع حضارتها ومدنيتها ومعرفتها الخاصة بها.

١. مفهوم «الإستضعاف» في القرآن الكريم

الإستضعاف هو «وجدان الشيء ضعيفا» (الراغب الإصفهاني، ١٤١٢ق، ص ٥٠٧؛ الزمخشري، ١٣٩٩ق، ص٣٧٦) أو «عدّ الشيء ضعيفا بتوهين أمره» (الطباطبايي، ١٣٩٠، ج٩، ص ٥٣؛ الجوهري، ١٤٠٤ق، ج٤، ص١٣٩٠).[1] فالإستضعاف هو الضعف أو التضعيف (الفيروزآبادي، ١٤١٥ق، ص٧٤٧؛ ابن الأثير، ١٣٦٧، ج٣، ص ٨٨)، يمكن أن تكون له أبعاد مختلفة ومستويات متعددة. فوجدان الشيء ضعيفا يُستخدم في معان مختلفة منها: القاء الضعف للشيء، ووجدان الشيء ضعيفا، واعتباره ضعيفاً، وعدّ الشيء ضعيفاً، وطلب الشيء ضعيفاً، وجعل الشيء ضعيفاً. كل من هذه المعاني يمكن أن تكون لها أحكام وتلقيات إجتماعية، وسياسية، وحضارية مختلفة. وبهذا، يمكن أن يكون الضعف أو الإستضعاف بمعنى إلقاء الضعف والإيهام بوجوده في شخص لم يكن ضعيفاً أصلاً. وإن ترك هذا الإيهام أثره على الفرد وإخضعه لمطلبه وحمله على الإقرار بما ليس فيه، فسيكون بمرور الأيام ضعيفاً ويغلب عليه الإيهام حتى يحول بينه وبين التقدم وتنمية الذات. وقد

١. وقد اعتبر الإستضعاف وجدان الشي ضعيفا وعاجزا من القيام بأمر ما (القرشي، ١٣٧١، ج٤، ص ١٨٣).

المجلد الأولى، العدد الأولى، الرقم المسلسل للعدد١، ربيع و صيف ٢٠٢٣

لا يكون الإستضعاف بمعنى إلقاء الضعف، وإنما بمعنى وهم الضعف والإقرار به قلبياً (وهذا يؤدي إلى غياب المعرفة اللازمة من ذلك الشيء أو الأمر). فتصور الضعف الناجم عن غياب المعرفة وجهل الفرد المستضعَف، لا يؤدي إلى ضعف الفرد المستضعف فحسب، وإنما يمكن أن يترك أثراً على المستضعِف أيضاً. ولهذا يمكن أن يستضعف خصمه ولا يحسب له أيّ حساب عند مواجهته. فقد يقال: آفة القوي استضعاف الخصم (ليثي الواسطي، ١٣٧٦، ص ١٨٢).

الجدير بالذكر أنّ وهم الضعف وإلقاءه وإيهامه في روح الفرد، قد يكون من قبل شخص آخر وقد يكون من قبل الشخص نفسه. وفي الحالة الثانية يجد المستضعَف نفسه عاجزاً عن القيام بالأمور المختلفة؛ فقد استضعف هذا الفرد نفسه وخضع للشعور الذي يوهمه بالضعف والخَور. كما قد يكون الإستضعاف إستضعافاً عملياً بمعنى أنّ ايهام الضعف وإلقاءه في قلب الفرد لا يقتصر على الحالات النفسية والشعورية، بل ينسحب على أمور مادية ويشكل عقبة أمام التنمية ويحول دون السير في ركب المدنية ومواكبة الحضارة لدرجة يفقد الفرد فيها عزّته وشخصيته ويمسي فرداً منساقاً وفاقداً للإرادة الحرة.

إذن ليس بالضرورة أن تؤدي كل انواع الإستضعاف إلى ضعف الفرد وضعف المجتمع المستضعف. فليس بالضرورة أن تكون نتيجة الإستضعاف الضعف والوهن. فقد تقول الآية: لا يَسْتَطيعُونَ حيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبيلاً (النساء، ٩٨). فالضعف لم يتعلّق بما يقوم به الفرد المستضعِف، بقدر ما هو يتعلّق بقبول الفرد المستضعَف والخضوع لما يلقى في قلبه ومخيلته؛ بتعبير آخر، لم يكن الإستضعاف سبباً في ضعف الفرد وعجزه عن التقدم في كل الأحوال، وإنّما ثمّة أسباب أخرى تعزز هذا الشعور، كما أنّ الفرد يمكن أن يصمد أمام هذه الإيهامات الواهية ويشحذ الهمم ويستنهض قواه لمواجهة إيحاءات المستضعف بضعفه فينمّي طاقاته ويطوّر مواهبه. ولهذا تصبح الإرادة حرّةً في مواجهة الإستضعاف. فإن خضع الفرد لإيهامات المستقوي وانساق وراء كلامه، وأصاب الضعف والخور

المجتمع واستسلم أمام المستضعفين، فلا شك أن الضعف والوهن سوف يستولي عليهم ويمسي هذا المجتمع في أسفل السلّم الحضاري[1]. فإن شحذ الإنسان الهمم وحثّ نفسه على المقاومة ومواجهة المستضعف، فإنّ الإستضعاف سوف ينعكس عليه إيجاباً ويعزز قواه ويشحذ إرادته في التنمية والتقدم. فصحيح أنّ عامل الإستضعاف وسببه هو الآخر المستضعِف وليس المستضعَف، بيد أنّ المنساق وراء هذا التضعيف والمستجيب لإرادة المستقوي هو المستضعف نفسه الذي أقرّ بضعف لم يكن فيه أساساً. بتعبير آخر، عمل الإستضعاف لا يؤدي بالضرورة إلى الضعف دائماً. بل المستضعفون يقررون الإستسلام أمام عملية الإستضعاف ويستجيبون للمستقوي وينقادون لمطالبه، لكنّ العكس ممكن أيضاً، فقد يستطيع هؤلاء المستضعفون أن يخلقوا من تلك المؤامرات فرصة ويطلقون طاقاتهم وقدراتهم الفردية والإجتماعية ويعملوا على تنمية مجتمعهم. فإن أدى الأستضعاف دائماً إلى التضعيف، فلا يمكن الخروج من حالة الإستضعاف التي يخلقها لهم المستقوي الذي يريد الإستيلاء على رقاب الناس والعبث بمصائرهم.

ومن أبرز نماذج الإستضعاف في العصر الحديث، هي ما نراها في حركة الإستشراق. فالإستشراق حسب تعبير إدوارد سعيد نوع من استضعاف الشرق من قبل المستشرقين الغربيين. وعامل إستضعاف الشرق من وجهة نظر الإستشراق، هم المستشرقون الذين ينظرون نظرة دونية للشرق ويجنّدون المعرفة لصالح إستيلاء الغرب على الشرق ولا ينظرون إليه نظرة ندّية. فقد انعكس هذا في الأدب الإستشراقي. إذ يعكس هذا الأدب الإنسان الشرقي إنساناً منقاداً للإنسان الغربي ولا يقدر على تدبير شؤون حياته. وما يتجلى كضعف في المجتمعات

١. صحيح أن الإنسان من الناحية التكوينية كائن ضعيف (خلق الإنسان ضعيفاً) (النساء، ٢٨)، لكنّه يمهّد لهذا الأستضعاف ويضاعف هذا الضعف فيفقد إرادته وحريته.

الشرقية، ليس بالضرورة المستشرقون أنفسهم؛ إنما العامل والسبب الأساس، هو العالم الشرقي والمجتمعات الشرقية التي تقرّ بهذه الخطابات وتخضع لما يُراد له أن يسود حيالها وتعتبر نفسها مجتمعات ضعيفة ولا تقدر على السير مع ركب التطور من دون المجتمعات الغربية.

بناء على ما سلف، الإستضعاف يتضمن أولاً نوعاً من الإنفعال مثل الميل إلى الظهور، والميل إلى الحضور في رواية الآخر، والحضور في مخيلة الآخر؛ وثانياً يصبح الأنا المستضعَف في هذا الميل إلى الظهور، والرواية والحضور، منقلباً على أمره ولا حول له ولا قوّة. ويصبح المجال متروكاً للآخر المستقوي لتقديم قراءته من الأنا المستضعَف، ويرسم هذا المستضعف حسب ما يريد، ويعزز الرواية التي يراد لها أن تسود من الأنا الشرقي المستضعف. فليس الآخر المستضعف وحده يرسم صورته من الأنا المستضعَف، بل أنا إيضا من خلال إنقيادي لما يراد لي وخضوعي للقراءات الإستشراقية أعمل على تعزيز هذه القراءة والترويج لها. فتكون مآلات هذا الإنقياد إنعدام الثقة بالذات، والإنسياق الأعمى وراء القراءات المعادية، والتمهيد للإستيلاء على رقاب الناس ومواردهم وحياتهم وفتح الباب على مصراعيه للمستشرق لكي يرسم صورتي للعالم وفق ما تمليه عليه مصالحه.[1]

يجب التنويه هنا إلى أنّه من الممكن أن يكون الإستكبار السبب الرئيس في الإستضعاف، بيد أنّ سبب الضعف لم يكن الإستكبار، وإنّما سببه انعدام الإرادة وغياب الثقة بالنفس لدى المستضعفين أمام المستكبرين والإنقياد لقراءاتهم وإلقاء الضعف في عقول المستضعفين من قبل المستكبرين. لهذا يمكن اجتثاث جذور الإستكبار من خلال مواجهته، لكن لا يمكن إجتثاث جذور

١. وفقاً لما ورد في هذا المجال لم يكن الإستضعاف من ناحية المعنى والمفهوم هو الإستخفاف نفسه، فالذستخفاف هو أحد طرق الإستضعاف وليس نفسه.

الضعف والشعور بالدونية عبر هذه المواجهة أو الإكتفاء بالكفاح ضد الإستكبار وفتح الطريق أمام التنمية والتطور. من جهة أخرى، سبب ضعف الإستكبار لم يكن "الآخر" دائماً، وإنما قد يكون الإستكبار أمراً خارجياً وقد يكون أمراً داخلياً وقد يكون الإثنين معاً. بمعنى أن الإنسان يقوّي الشعور بالإستكبار في نفسه فيُضعف الإيمان بها فيسوقها نحو هاوية الإستضعاف. فقد يقول القرآن: «لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فى أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبيراً» (الفرقان، ٢١).

الجدير بالذكر هنا أنّ المستضعفين عديدون. فقد يمكن الإشارة إلى المستضعفين الأخلاقيين. والمقصود بالمستضعف الأخلاقي هنا لم يكن أمراً سلبياً، بل العكس هو تعبير إيجابي يشير إلى نوع من الشعور بالضعف النابع من السمو الروحي والعلوّ النفسي وعظمة الروح العالية. فمن أضعفته حياته الأخلاقية في عيون الناس وأظهره تواضعه ضعيفاً بين الناس، لا يمكن النظر إليه بعين الإستعلاء والتكبر. فهؤلاء متواضعون صغار في عيون المخلوق كبار في عيون الخالق. فقد يقول الإمام علي عليه السلام حول هؤلاء: (كَانَ لِي فِيما مَضَى أَخٌ فِي اللهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِه، وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِه فَلاَ يَشْتَهِي مَا لاَ يَجِدُ وَلاَ يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً فَإِنْ قَالَ بَذَّ الْقَائِلِينَ وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً فَإِنْ جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ غَابٍ وَصِلُّ وَادٍ لاَ يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِياً) (الشريف الرضي، ١٤١٤ق، ص ٥٢٦). هذه النعوت التي يصف بها أميرالمؤمنين هؤلاء الناس توحي بأنّ عمل الإستضعاف مذموم بحدّ ذاته، بيد أنّ الضعف والإستضعاف قد ينبع من الفضيلة الأخلاقية مثل فضيلة التواضع. لا غرو أنّ مثل هذا النوع من الإستضعاف (حسب ما ورد في كلام أميرالمؤمنين) لا يعني الضعف باتاً. فقد يمكن أن يكون الإنسان قوياً ويظهر بين الناس ضعيفاً متواضعاً.

بناء على ما ورد في هذا المضمار، ربما تكون ثنائية المستضعف المستكبر ثنائية جدلية، لكن لم يكن مفهوم «الإستضعاف» في الطرف النقيض لمفهوم

«الإستكبار». كما يمكن أن يكون نقيض الإستضعاف إمتلاك القوّة، والقدرة، والإقتدار، والعزّة. فلكي يمتلك الإنسان مثل هذه العزّة والقوة في حالة الإستضعاف، لابد أن يمتلك القدرة على الصمود والمواجهة.

٢. اسباب الإستضعاف من منظور القرآن

بناء على قيل عن ماهية الإستضعاف، يمكن رصد جذور الإستضعاف في نقطتين أساسيتين في النص القرآني: أولاً: الإستضعاف الناجم عن ضعف الفرد والخور الذي ينخر كيانه ويجلعه مستضعفاً بكل معنى الكلمة. فقد ذمّ القرآن هذا الإستضعاف وذمّ أهله واستنكر وجوده في عقل المسلم وروحه. فقد يقول في موضع: «قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فيها» (النساء، ٩٧). وهذا النوع من الإستضعاف الذي هو شكل من أشكال الإصياع للقوى المستكبرة والإنقياد لإملاءات وأوامر قوى الإستكبار والإستعلاء لا يمكن أن يصنع إنساناً ولا يقود المجتمع البشري نحو صناعة الحضارة والتنمية. ثانياً: الإستضعاف إذا لم يكن ناجماً عن الضعف والتواني، وإنّما من نتائج ومآلات الظلم والجور الذي يمارسه المستكبرون على الناس للإستيلاء على رقابهم، فهو نتاج خضوع هؤلاء المستضعفون لممارسات المستكبرين«لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فى سَبيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ» (بقره، ٢٧٣). في مثل هذا النوع من الإستضعاف إن كان المستضعفون مغلوبين على أمرهم ولا حول لهم ولا قوّة وتُمارس ضدهم أنواع القهر والظلم، أو لم تكن بحوزتهم إمتيازات إجتماعية ولا يحظون بحقوق المواطنة مثل غيرهم، لا يجرأ المستكبرون على فرض سلطتهم عليهم ولا يطمعون في الإستيلاء على مقدراتهم وخطف حياتهم. والنوع الثاني من الإستضعاف، لم يكن ناجماً عن ضعف المستضعف بقدر ما هو نتاج قوّتهم وقدرتهم وطاقاتهم الكامنة؛ بمعنى أن المستكبر يعلم أنّ ترك هؤلاء أحراراً وعدم ممارسة التضييق والتعسف ضدّهم، تقوي شكوتهم فيفرضون سيطرتهم عليهم ويستولون على أنفسهم وأموالهم؛ ولهذا يسعون لإضعافهم،

وإيهامهم بالضعف، ونخر قواهم داخلياً وخارجياً وسلب الثقة بالنفس منهم. وهذا يفرض علينا التمييز بين المستضعف العزيز والمستضعف الذليل. فلا طريق للحضارة وصناعة الحياة الكريمة في ظل الإستضعاف الذليل، لكنّ الإستضعاف العزيز يحمل في حناياه بذور العزّة وينطلق نحوها ونحو الحضارة والتمدن فور التحرر من المستكبرين وكسر قيود الظلم والعسف. بتعبير آخر، لا يمكن أن يحول الإستضعاف بحد ذاته دون العزّة وصناعة الحضارة، بل ما يحول بين المستضعف وبين العزّة والحضارة، هو الإنصياع للذل والإقرار بالإحتقار. وهؤلاء قد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة.

٣. طرق الإستضعاف وطريق «الإستخفاف»

يحدث الإستضعاف حسب المنطق القرآني عبر طرق مختلفة. منها السخرية (التوبه، ٧٩؛ والبقرة، ٢١٢)، والإستهزاء (الحجر، ١١، و يس، ٣٠)، والإيذاء (الأحزاب، ٥٧-٥٨). وفضلاً عن هذه الطرق، يمكن الحديث عن طريق آخر هو «الإستخفاف» الذي تحدث عنه القرآن الكريم وقلما كان محط اهتمام الباحثين والعلماء في الدراسات الإجتماعية، والسوسيولوجية، والحضارية. هذا في حين نرى أن «الإستخفاف» من أبرز وأنجع طرق التسلل إلى البلاد الإسلامية والإستيلاء عليها والتغلغل في صفوف المسلمين وهو من أهم طرق العالم الغربي لفرض سطوته على العالم الإسلامي.

المجلد الأولى، العدد الأولى، الرقم المسلسل للعدد١، ربيع و صيف ٢٠٢٣

فعبارة «الإستخفاف» على وزن الإستفعال وردت في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم هي الآية ٦٠ من سورة الروم (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ)، والآية ٥٤ من سورة الزخرف (فَاسْتَخَفَ قَوْمَهُ فَأَطاعُوه) والآية ٨٠ من سورة النحل (وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقامَتِكُمْ). ولا تندرج الآية الأخيرة ضمن موضوع بحثنا، إلّا أنّ الإستخفاف الوارد في الآيات المتعلقة بفرعون وقومه وأيضاً الإستخفاف الوارد في الآية المتعلقة بالنبي الأكرم

تتحدث عن طريق للإستخفاف انتهجه كل من فرعون للإستخفاف بقومه، وغير المؤمنين للإستخفاف بالرسول الأكرمﷺ.

الإستخفاف في آية «و لا يستخفنك الذين لا يوقنون» يعني الإستضعاف والهشاشة التي تؤدي إلى فرض السيطرة على الآخر والإستيلاء عليه. وقال بعض المفسرين في معنى «لايستخفنك»: «أي لا يحملنك على الخفه و القلق» (الآلوسي، ١٤١٥ق، ج١١، ص ٦١؛ فيض الكاشاني، ١٤١٥ق، ج٤، ص ١٣٨). وهذا معناه أنّ المرء يواظب على نفسه حتى لا يستخف به من لا يؤمن بالله ويحمله على القلق ويجلب له التعب والأذى. وقال البعض الآخر حول المقصود بالإستخفاف في الآية ما يلي: «لايستخفنك الذين لا يوقنون، ليهزوا موقفك و ليثيروا القلق فى مشاعرك، و ليجعلوا موقعك من الموقف الحق موقفا خفيفا مهتزا غير ثابت» (فضل الله، ١٤١٩ق، ج١٨، ص ١٦٨). اما تفسير مجمع البيان فيقول أنّ المراد بالإستخفاف في الآية هو «الإستصغار». ويقول التفسير الأمثل للشيرازي في تفسير الآية: «لا يستخفنك» من مادة «الخفّة» وتعني الصغر وانعدام الوزن والثقل. ومعناه أنّ يكون المرء ثقيلاً وصاحب وزن روحي ونفسي لنفسه حتى لا يقدر أحد على حمله على القلق وإثارة الخوف والإضطراب في قلبه. لأنّهم لا يؤمنون بالله وهو منبع الإيمان ومعينه الذي لا ينضب (مكارم الشيرازي، ١٣٧١، ج١٦، ص ٤٩٠).

ما يُفهم من تفاسير المفسرين من هذه الآية يوحي بوجود معنيين لكلمة الإستخفاف، الأول هو «اعتبار الشيء خفيفاً»، والثاني «إعتبار الشيء واهياً». وصحيح أنّ الوهن قد يكون ناجماً عن الإستخفاف، لكن ما تؤكد عليه الآية هي الإستخفاف الذي يختلف عن الوهن وإحقام الضعف والهشاشة في الشيء. فالإستخفاف كالإستضعاف عملية نفسية يتسلل خلالها الضعف والوهن في كيان الفرد، فمن يريد ألّا يكون ضعيفاً خائر القوى، يجب أن يتوخى الحيطة والحذر دائماً ولا يترك المجال للعدو ليُقحم هذا الوهن في قلبه وروحه ويؤثر عليه نفسياً. فإيهام الضعف والوهن من قبل الخصوم يؤول إلى قبول الوهن إذا تكرر

هذا الإيهام؛ فتكرار الشيء بلاهوادة يؤدي إلى قبوله وإن جانَبَ الصواب. ويمكن إيجاد نفس هذا المعنى في الآية ٥٤ من سورة الزخرف التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى عن فرعون: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوه. ويقول مجمع البيان أنّ إستخفاف القوم هو الإستخفاف بعقولهم. اما التفسير الأمثل فيقول في تفسير الآية:

> انّ طريق جميع الحكومات الفاسدة والجبابرة هو قطع طريق المعرفة والفكر أمام الناس وإبقاءهم على جهلهم للإستيلاء عليهم وتحميقهم بشتى الطرق والوسائل. يجب وضعهم في حال الجهل عن الحقائق وحجب الواقع عنهم بمختلف الأساليب لكي يمكن إحلال القيم الزائفة محل القيم الحقيقية، وغسل أدمغتهم وترويج الجهل والخرافة بينهم. لأنّ وعي الأمم وتوعية أبناء الشعوب أكبر عدو لحكومات الجور والعسف، وما تخاف هذه الحكومات الشيطانية من شيء بقدر خوفها من وعي الشعوب. وهذه الطريقة الفرعونية أصبحت أكثر رواجاً في عصرنا الراهن من قبل الحكومات الفاسدة في هذا العصر؛ فقد تعتمدها الحكومات الطاغية لفرض سلطتها على رقاب الناس (مكارم الشيرازي، ١٣٧١، ج٢١، ص ٨٨).

ويؤكد السيد قطب في كتابه الشهير في ظلال القرآن على هذه النقطة عند تناوله عمليه الإستخفاف ويقول أنّ أهل الطغيان والجور يقطعون طريق المعرفة في وجه الشعوب وتجعله درباً وعراً لا يتجشّمه أحد حتى يبتعد الناس عن الحقائق. فما تطمح إليه هذه الحكومات هو إلقاء الباطل في قلوبهم لكي يسهل الإستخفاف بهم ويسهل انقيادهم ويسلس للطغاة إنسياقهم أينما أرادوا (قطب، ١٤٢٥ق، ج٥، ص ٣١٩٤). إذن يقول التفسير الأمثل للشيرازي و في ظلال القرآن للسيد قطب أنّ المراد هو الخفّة التي لا تتنافى مع الإستخفاف، إلّا أنّ بعض

التفاسير الأخرى ذهبت مذهباً آخر في تفسير العبارة وقالت أنّ المقصود هو طلب الخفّة. مثلاً ما ورد في كتاب روح المعاني يؤكد على أنّ المراد هو طلب الخفّة والسعي لها. فيقول صاحب تفسير روح المعاني: «طلب الخفة (أيّ السرعة) في مطاوعته» (الآلوسي، ١٤١٥ق، ج١٣، ص ٩١). في هذه النظرة لا تعني طلب الخفة بالضرورة الخضوع لها وثمّة فارغ كبير بين الأمرين.

٤. الإستضعاف والظهور

عند الحديث عن الإستضعاف من منظور القرآن يجب الفصل بين أمرين يتمثلان في سؤالين: الأول: ما هي صفات المجتمع المستضعف الذي يظهر فيه الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف وفي أيّ شكل من أشكال الإستضعاف؟ (وَنُرِيدُ اَن نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ استُضعِفوا) (القصص، ٥). وأيّ شكل من أشكال الإستضعاف وأيّ فئة من الفئات المستضعفة تحول دون ظهوره؟ بتعبير آخر، ما هي صفات الإستضعاف الذي يجب أن نتجنّبه نحن الشيعة ونتفادى استفحاله في المجتمع كي لا يحول دون ظهور المهدي المنتظر؟ ومن جهة أخرى، أيّ شكل من أشكال الإستضعاف يعزز آمالنا في ظهور المهدي المنتظر ويؤمّلنا في حال «الإضطرار»؟ وقد حمل بعض الباحثون الإستضعاف على محمل الضعف وقال أن الإستضعاف لا يعني سوى الضعف؛ فقد سلك هؤلاء مسلكاً مختلفاً وقالوا بعدم ضرورة الإستضعاف أو الضعف الفكري، لكن لا عيب في أن نكون مستضعفين إجتماعياً. فضعف المستضعف إجتماعياً ينقلب إلى قوّة فور ظهور المهدي المنتظر فيبدّل الإمام حالة الضعف إلى حالة القوة. ثانياً: الشق الثاني من السؤال لا يتعلق بظهور المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف، وإنما يتعلّق بنمط الحياة في عصر الغيبة. فما هي أشكال الإستضعاف التي يجب أن نتحلى بها في عصر الظهور حتى لا يتملّكنا الضعف الديني ويستولي علينا الضعف المادي والدنيوي ونكون مؤهّلين لتقديم خدمة للدين ونمهّد الأرضية اللازمة للحياة الكريمة والمعقولة؟

يبدو أنّ في حالة الإستضعاف المفروض من قبل المستكبر يمكن أولاً التمهيد للحضارة والتفكير في صناعتها والبدء بالعملية الحضارية، وثانياً يمكن عقد الأمل بحضور المهدي المنتظر وظهوره وهذا الأمل الممزوج بالإستدعاء لم يكن من منطلق الضعف والإستغاثة، وإنما من منطلق التعاضد وتضافر الجهود لصناعة الحضارة. والدعاء لتعجيل ظهوره في هذه الحالة لم يكن دعاء المستأصل الذي لا حول له ولا قوّة، بل دعاء من يريد أن يصنع حضارة من منطلق القوّة واكتمال صناعة الأمّة الإسلامية التي بدأت في التكوين منذ فجر الدعوة. وما يشكل مركز اهتمام كتّاب هذه المقالة هو الشق الثاني من السؤال المتعلق بالإستضعاف في عصر الغيبة. فهل يمكن في عصر الغيبة أن يكون الإنسان مستضعفاً قوياً؟ هل يمكن أن يكون مستضعفاً متحضراً؟ أم هذا ضرب من المستحيل؟ وهل يمكن للمستضعفين السير نحو صناعة الحضارة في عصر الغيبة أم لا؟

٥. الوارثون: «الصالحون» أم «المستضعفون»؟

الإشكالية التي تطرحها الآيات المتعلقة بوارثي الأرض تتمثل في السؤال التالي: هل المقصود بـ «الإستخلاف في الأرض»، و«التمكين في الأرض»، و«وارثو الأرض» تتعلق بجميع مستضعفي العالم أم تقتصر على المستضعفين المؤمنين أو الصالحين في بعض أرجاء المعمورة؟ ما نفهمه من الآيات العديدة من القرآن الكريم توحي لنا أن الإستضعاف المطلق ليس مجدياً ولا محموداً ولا يمكن أن يكون الإنسان مستضعفاً بسبب الهون والضعف ويكون من وارثي الأرض في الوقت نفسه؛ ولا يمكن أن يستخلف الأرض وهو مستضعف. فما يوجب الإستخلاف في الأرض ليس الإستضعاف لوحده، وإنما الإيمان والعمل الصالح ومناصرة المستضعفين والمعذبين في الأرض.

يقول الشهيد مطهري عن معنى الإستضعاف في الآية «ونريد أن نمنّ» أن

الشرط الأساس للنصر لم يكن إستضعاف المستضعفين وحده، وإنّما العمل الصالح الذي يقوم به الصالحون. بمعنى أن الله يمنّ على المستضعفين لا لأنّهم استُضعِفوا بل لأنّهم صلحاء ولم يؤثر الإستضعاف على إيمانهم (مطهري، ١٣٩٥، ج١٥، ص ٩٠٧). فضلا عن هذا، لا يمكن الحديث عن وارثَين إثنين والقول أنّ سنّة من سنن القرآن وردت في الآية «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِين» (القصص، ٥)، والأخرى وردت في الآية: «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُون» (الأنبياء، ١٠٥). لم يرد في القرآن ما يوحي بغضب الله على المؤمنين والصالحين، في حين نجد الكثير من الآيات تلقي اللوم على المستضعفين وتؤكد أن الإستضعاف والضعف جاء نتيجة الهون والخور الذي استولى على قلوبهم وعقولهم. فمثل هذا العتاب الموجه إلى المستضعفين في القرآن يوحي أن الإستضعاف لا يؤدي إلى الفلاح بالضرورة، ولا يؤول الضعف أو الإستضعاف إلى نصرة الله أو يستوجبها (مطهري، ١٣٩٥، ج١٥، ص ٩٢٠). عندما يتحدث الإمام الخميني‌ﷺ عن المستضعفين يؤكد على الإيمان والعمل الصالح لديهم. فقد يقول الإمام في كتابه صحيفة النور حول المستضعفين وآية الإستضعاف في سورة القصص:

> إنّ الإسلام يرعى للمستضعفين: «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِين»، و وعد بدعم المستضعفين وسوف ينجز وعده. هذه الطبقة من المجتمع، هذه الطبقة المسحوقة التي يستهزء بها الأغنياء ويسمونهم بالطبقة الدونية وهم الطبقة العليا قد ترث الأرض. لكن منطق المستكبرين ينفي ذلك، هذا منطق من استعلى واستكبر على خلق الله. هذا معنى الإستضعاف الذي يقول أن المستضعف من ضعُف إيمانه، وليس من ضعفت قدرته. لكن بعض الناس لا يعقلون (الخميني، ١٣٧٩، ج٩، ص ٢٠١).

على رغم من صحة تفسير الإمام الخميني والشهيد مطهري من معنى الإستضعاف، لكن لابد من التأكيد على قضية هامة وهي: صحيح أنّ الإستخلاف في الأرض ووراثة الأرض، لم يكن الإستضعاف وحده، وإنما يجب أن يكون المستضعف صالحاً ومؤمناً. كما يجب التأكيد على هذا النقطة أن المقصود بالإستضعاف لم يكن الإستضعاف الذي يجلبه الإنسان لنفسه، وإنما الإستضعاف الذي حُمّل على الإنسان وفُرض عليه فرضاً. فهذا الضعف المفروض يمكن أن يحثّ الإنسان على الإيمان ويستنهض قواه الإيمانية في مواجهة المستكبر فيقود الضعفاء وغيرهم ممن لا يندرجون ضمن دائرتهم، نحو الفلاح والخلود (بهرام بور، ١٣٧٨، ج٨، ص ٢٦٧). من جانب آخر، إن كان بالإمكان رسم الإيمان والعمل الصالح وتخيّل الإثنين بصورة تشكيكية، وإذا كان بالإمكان تقسيم الإيمان إلى الإيمان ماقبل الوحي (الإيمان الفطري)، والإيمان ما بعد الوحي (الإيمان الديني)، وأيضا إذا أمكن تقسيم العمل الصالح إلى العمل الصالح الإيماني والعمل الصالح الإنساني، عند ذلك يمكن الحديث عن نوعين من الإستضعاف وهما استضعاف المؤمنين واستضعاف الإنسان بشكل عام. وبناء على هذا، سيكون في الإستخلاف في الأرض فرقاً يتمثل في المستضعفين والإستضعاف. فهناك استضعاف إنساني واستضعاف إيماني والمعيار الذي يميّز بين الفئتين هو درجة الإيمان والعمل الصالح وليس أصل الإيمان والعمل الصالح.

لا شك أنّ هذا لا يعني أن «الإستضعاف» يؤدي دائماً إلى الإيمان والعمل الصالح حتماً. فتاريخ البشرية حافل بالمستضعفين الذين لا تعرف قلوبهم الإيمان ولا يرون عيباً في الإنقياد وراء المستكبرين. كضعفاء قوم النبي صالح الذين يؤمن بعضهم بنبوّته وأعرض البعض الآخر عنه ولم يؤمن به (قطب، ١٤٢٥ق، ج٣، ص ١٣١٣). كهذا يمكن القول أنّ بعض المستضعفين يدركون رسالة النبي أكثر من غير المستضعفين. وقد نشاهد هذا الفهم البشري المشترك بين المؤمنين

والمستضعفين (من غير المؤمنين)، في المجتمعات التقليدية (كبعض دول أمريكا اللاتينية) والمجتمعات الإسلامية التي ثارت في وجه الإستكبار وهيمنة الحداثة. ففي هذه النقطة وتحديداً في مواجهة الهمينة الإستكبارية، ستكثر القواسم المشتركة بين المستضعفين والمؤمنين بصورة مضطردة وتفوق على القواسم المشتركة بين المؤمنين والمستكبرين أو المؤمنين و غير المستضعفين.

٦. الإستضعاف والإستخلاف على المستوى الحضاري

هناك مستويات عديدة للإستضعاف؛ فقد يحدث على مستوى ضيق، مثل الإستضعاف الفكري، والإستضعاف الإقتصادي؛ وقد يحدث على مستوى أشمل وأوسع وهو ما يمكن تسميته بالإستضعاف الحضاري. والمقصود بالإستضعاف الحضاري هو الإستضعاف الشامل الذي يشتمل على جميع أبعاد الحياة البشرية؛ هذا الإستضعاف هو استضعاف ممنهج ويسعى للنيل من أركان الحضارة الثلاث (العلم، والثقافة، والسياسة)، والأهم من هذه الأركان يسعى لتدمير الإستضعاف في النزعة الدينية (الإيمان والعمل الصالح). والآيات التي تحدثت عن الإستضعاف والإستخلاف تقصد الإستضعاف الحضاري. ويمكن إيجادها في آيات مثل: «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِين» (القصص، ٥)، و «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُون» (الأنبياء، ١٠٥)»، و «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً» (النور، ٥٥)، «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْض» (النمل، ٦٢)، و «وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ

الْحُسْنى عَلى بَنى إِسْرائيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُون» (الأعراف، ١٣٧). بالنظر إلى القرائن الموجودة في الآيات، مثل القرائن الموجودة في عبارات مثل مشارق الأرض والمغاربه، والإستخلاف ووراثة الأرض، والسلطة الدنيوية، والسلطة الدينية، والرزق الطيب، والأمنية، والولاية والإمامة، والبركة على الأرض، وكشف السوء وتأييد النصر، ودلالة كل من هذه المفاهيم في تكوين المجتمع وبناء المكونات الإجتماعية مثل الأمة، والبلد، والمدينة، والملك، يمكن القول أنّ المقصود بالإستضعاف في هذه الآيات هو الإستضعاف الحضاري وتطبيق هذه التفسير على مضمون هذه الآيات. إذن، يمكن تفسير معنى الإستضعاف بأنّه إستضعاف حضاري، أما على مستوى المطابقة فيمكن القول أن الآيات تتطابق مع الإستضعاف الحضاري ويمكن إيجاد المصاديق الدقيقة والتامّة للإستضعاف الحضاري وما يؤدي إلى ضعف الحضارات وزوالها في هذه الآيات بكامل ملامحها.

إذن، المقصود بالإستضعاف الحضاري، هو الإستضعاف على المستوى العام، والإستضعاف الممنهج، والإستضعاف الجامع والشامل (من الناحية المادية والروحية)؛ بحيث يؤثر على المجتمع الإسلامي على المستوى العام ويعزز الأسباب التي تؤول إلى ضعف الأمة الإسلامية وانحطاطها. ومثل هذا الإستضعاف يمكن أن يُفرض من الأمم الأخرى، كما يمكن أن يكون نتاج أعمال وسياسات الدول العظمى. لكن مواجهة هذا النوع من الإستضعاف والسعي للخروج من عنق الزجاجة وإيصال الأمة إلى برّ الأمان، يجب أن تكون مواجهة حضارية، فلا يمكن التصدي لإضعاف الحضارة إلا من خلال تعزيز قوّة تلك الحضارة. لكن يمكن أن يكون الخروج من الضعف أو الإستضعاف السياسي عبر الطرق السياسية كالثورة وغيرها من الحركات السياسية، بيد أنّ الخروج الكامل من الضعف الناجم عن الإستضعاف الشامل الذي ينال جميع مفاصل الحياة لا

يمكن إلا من خلال الإستضعاف الحضاري؛ تماماً مثلما التنمية وصناعة المجتمع المتمدن لا تتحقق إلا من خلال التنمية الحضارية. إذن إذا كان الإستضعاف على المستوى العام، فالخروج منه أيضاً يجب أن يكون على جميع المستويات الحضارية. بتعبير آخر، عندما يكون الإستضعاف من الناحية الحضارية، أو يكون على مستوى الحياة الإجتماعية بكل تفاصيلها، يجب أن يكون الخلاص منه والتحرر من قيوده على كافة المستويات وعلى المقياس الحضاري بكل ما تحمل كلمة الحضارة من معان. فمن دون صناعة الحضارية والتنمية الحضارية، لا يمكن الخلاص من الإستضعاف الحضاري.

في ما يتعلق بالإستضعاف والضعف الناجم عنه، يجب أن يكون الخلاص منه كاملاً ويجتثّ كل صفات الضعف ومآلاته بحيث لا يشعر المستضعفون بعدها بالضعف والوهن. بتعبير آخر، الخلاص من الضعف ليس بالضرورة ملازماً للخلاص من الإستضعاف. فقد تسعى بعض الدول، والحكومات، والحضارات لمواصلة سياساتها في استضعاف الحضارات الأخرى واستعبادها وتحافظ على نزعتها الإستكبارية والإستعلائية المؤدية إلى إستعمار الشعوب وامتصاص مواردهم، لكن في نفس هذا الإستضعاف الذي يمارسه هؤلاء المستكبرون، يمكن التحرر من الإستضعاف والخلاص من نير الإستعباد والسلطة القاسية التي تمارسها الدول المستكبرة، وتحاشي الأضرار الناجمة عن سياساتهم المستكبرة ودرء شرّهم والتحرر من هيمنتهم. هذا إن دلّ على شيء إنما يدل على عدم وجود تباين أو تضارب بين «حضارة المستضعفين» و «الإستضعاف» (بمعنى الإستخفاف بالقوة). إنّ نزعة المستكبرين ورغبتهم باستضعاف الشعوب واستعبادها، لا تزول بالضرورة بوراثة الأرض من قبل المستضعفين، أو استخلاف المستضعفين على الأرض، وتمكين المستضعفين من الحكم على أرض الله، بل يمكن أن تبقى على حالها رغم زوال هيمنتهم. فهي نزعة مناهضة

للقيم الإنسانية وميول إستعلائية تغلغلت في الخطاب الإستعماري، ولهذا قد تبقى على سياساتها الإستعلائية التي تحتقر الشعوب الأخرى وتنظر إليها نظرة دونية وتعتبرها حضارات من الدرجة الدنيا وبرابرة عاجزين عن صناعة حضارة عصرية.

٧. «الإستضعاف الحضاري»، و«القوة الحضارية»، و«العزة الحضارية»

لقد عدّت جماعة من الباحثين أشكال مختلفة من الإستضعاف وقالوا أنّ الإستضعاف يمكن أن يشتمل على الإستعباد (العبودية)، والإستغلال (الضعف الإقتصادي)، والإستبداد (الضعف السياسي)، والإستعمار (ضعف النزعة الوطنية)، والإستحماق (الإستخفاف بالعقل، والفكر، والإخلاق) (شريعتي، ١٣٦٢، ص ٢٠٦). وأضاف البعض الآخر على الإستضعاف الإقتصادي (الفقر الإقتصادي)، والإستضعاف الفكري والعقلي، نوعاً آخر وهو الإستضعاف الإجتماعي وقالوا أنّ المقصود بالإستضعاف في الآية (ونريد أن نمنّ) هو الإستضعاف الإجتماعي. وقد أشار الباحث عباس بسنديده في مقالته تحت عنوان «الإنتظار والإقتدار» إلى هذا الموضوع وعند تطرقه إلى قضية السامري وقوم النبي موسىعليه‌السلام، إلى أنّ إستضعاف هارونعليه‌السلام في قوله تعالى (إنّ القوم استضعفوني) ليس الإستضعاف الإقتصادي أو الفكري، وإنما الإستضعاف الإجتماعي. فعندما يقول هارونعليه‌السلام أنّ القوم استضعفوني فهو لا يقصد أن القوم افقروه وجعلوه معدماً مالياً، أو استخفوا بعقله وفكره، وإنما يقصد الإستضعاف الإجتماعي (تجدر الإشارة هنا إلى أنّ بسنديده (كاتب المقال) يرى الإستضعاف ملازماً أو مرادفاً للضعف). فهذا يعني أنّ النبي هارون كان يمتلك قدرة التحليل والتفسير وكان يعقل ويفكر، لكنّه كان يفقد القدرة على ممارسة الضغط اللازم على قومه ليهديهم إلى سبيل الرشاد أو يؤثر على عقولهم. ففي هذه التحليل يمكن القول أنّ الكلام يصدق على الإمام علي بن أبي طالبعليه‌السلام

الذي كان من الرسول الأكرم بمنزلة هارون من موسى عليه السلام[1]. كما يمكن تطبيق هذا الإستضعاف الإجتماعي على إستضعاف أهل بيت رسول الله عليهم السلام[2].

بناء على ما يقول الباحث (بسنديده) عندما يدور الحديث عن دولة المستضعفين، فالمقصود ليس دولة الحفاة العراة والمعدمين. فالفقر، والجوع، لم يكن سبب تأسيس دولة المستضعفين وحكومتهم. كما أن سبب غيبة المهدي المنتظر، ليس غنى الناس، وانعدام الفقر، واجتثاث العوز بينهم، ولا يجوز ترويج الفقر وثقافة الفقر للتمهيد لظهور المهدي المنتظر (يجب التنويه هنا أنّ موضوع مقال الباحث هو ظهور المهدي المنتظر). وبالطريق الأولى يمكن سحب هذه القضية على الإستضعاف والفقر الفكري والثقافي، فمما لا شك فيه أنّ المقصود بحكومة المستضعفين، ليس تلك الحكومة التي لا يقدر قادتها وحكامها على التمييز بين الحق والباطل. فإن كان كذلك فإنّ سبب غيبة المهدي المنتظر، هو تقدم الناس فكرياً وثقافياً، كما أنّ سبب ظهوره هو ضعف الناس من الناحية الفكرية والثقافية. إنّ هذه القراءات تتنافى مع الروايات الواردة في التراث الديني حول كمال العقل والفكر في حكومة المهدي المنتظر. فقد يرى الباحث (بسنديده) في هذه المقالة، أنّ المقصود بالإستضعاف في حكومة المستضعفين هو الإستضعاف الإجتماعي الذي يتعلق بمن يمتلك الولاية وحق الحكومة، لكن بما أنّ هؤلاء

١. أمّا إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وابنيه الحسن والحسين عليهما السلام فقد كفانا مؤونة إثباتهما اشتهارُ محامدهم وفضائلهم، وما فعل سامريّ هذه الامّة من نصب العجل الخبيث يوم السقيفة، وتظاهر جمع من العجليّين على استضعاف من هو من الرسول بمنزلة هارون من موسى. الذريعة إلى حافظ الشريعة (جيلاني، ١٤٢٩ق، ج١، ص ٥٨٨).

٢. أخبر النبي صلّى الله عليه و آله قبل وفاته عليّا و فاطمة عليهما السّلام بما يجري عليهم من بعده، و قد تقدّم ذلك، و لذلك صاحت الزهراء و بكت؛ لأنّها عرفت من رسول الله أنّ القوم سيستذلّونهم و يستضعفونهم، و هذا ممّا لا خلاف فيه، فقد وقع الاستضعاف لآل محمّد و الإيذاء لفاطمة، و أنزلوا الذلّ بها، و قد أخبر النبي صلّى الله عليه و آله بذلك (ابن‌طاووس، ١٤٢٠ق، ص ٣٧٩).

مستضعفون إجتماعياً فقد عجزوا عن تأسيس حكومتهم (الإستضعاف هنا بمعنى الضعف فقط). فمن هذا المنطلق، يكون الإستضعاف (أو الضعف) في الطرف النقيض للقوّة أو الإقتدار وأنّ «تأسيس الحكومة مرهون بعنصر القوّة الإجتماعية، وغياب هذا العنصر واستفحال الضعف في المجتمع، العامل الأساس في انعدام القدرة على تأسيس حكومة المعصوم» (بسنديده، ١٣٨٦، ص ٥). مثل هذا الإستضعاف الإجتماعي وغياب القوة الإجتماعية يمكن مشاهدته بوضوح في تاريخ الأنبياء، فقد انعكس في القرآن بكثرة وتطرق إليها الوحي في مواضع عديدة. مثل خطاب النبي هارون لأخيه موسى حين قال له: «قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونی وَ كادُوا يَقْتُلُونَنی» (الأعراف، ١٥٠)، وحديث النبي نوح عليه السلام لربّه في الآية التي تقول: «فَدَعا رَبَّهُ أَنّی مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر» (القمر، ١٠)، وخطاب النبي لوط لقومه:«قالَ لَوْ أَنَّ لی بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوی إِلی رُكْنٍ شَديد» (هود، ٨٠)؛ كل هذه الآيات تتضمن إظهار الضعف الإجتماعي وانعدام القوّة الإجتماعية لممارسة السلطة على القوم.

يمكن في تحليل الباحث بسنديده، التمييز بين الإستضعاف الجزئي والإستضعاف الكلي، والإستضعاف الأدني والإستضعاف الأقصى. يبدأ الإستضعاف الإجتماعي في جغرافيا المدينة ويمتد وتتسع رقعته لتشمل إستضعاف حضارة برمّتها. وفي المقابل، القوة التي يراها الباحث طريقاً للخروج من الإستضعاف الإجتماعي، لا يمكن أن تكون قوّة على مقياس حيّ صغير أو مدينة، أو بلد، وإنما على مقياس حضارة بكاملها، وحينها القوة الحضارية جديرة بأن تفتح طريقاً للخروج من الإستضعاف الحضاري.

على الرغم من دقّة نظر الباحث في تطرقه لمقولة القوّة وعمق تحليله من هذا المفهوم، إلا أنّ القوّة تحلّ أزمة الضعف ولا تقدم حلاً لأزمة الإستضعاف وتشكل مخرجاً من هذا المأزق. فما يزيل الإستضعاف (بمعنى الإستخفاف

بالقوّة)، ليس القوّة فحسب، وإنما يجب أن تكون العزّة في ذروتها وتشكل إلى جانب القوة محرّكاً هائلاً للخروج من حضيض الإستضعاف. فمنطق العزّة والشعور بها يمكن أن يزيل غمام الإستضعاف من سماء الأمّة، ويُغلق الطريق أمام المستكبر حتى لا يجرأ على الإستخفاف بقدرات الإمة وعزّتها، والعزيز وحده قادر على درء شرّ المستكبر و ردّ كيده في نحره. من جانب آخر، الإستضعاف الحضاري، لا يقتصر على الإستضعاف الإجتماعي، وإنما يمكن أن يكون إستضعافاً إقتصادياً وفكرياً أو الإثنين معاً. ونظرا لسعة دلالات مصطلح الإستضعاف، يمكن رسم إستضعاف جامع يستولي على العالم المعاصر بأسره ويتضمن إستضعافاً إقتصادياً ومالياً ناجماً عن العقوبات الإقتصادية والضغوط التي يمارسها الطغاة على إقتصادات الدول التي لا تدور في فلكها، وهو ما يتمثل في الإستكبار المالي للدول المستكبرة[1]. هذا الإستضعاف يمكن أن يكون إستضعافاً فكرياً وهو ناجم عن الحملات الإعلامية والتعتيم الإعلامي الذي تمارسه الإمبراطوريات الإعلامية والتعتيم الثقافي والفكري. كما يمكن أن يكون إستضعافاً إجتماعياً على مستوى عام يتضمن الضغوط السياسية، والإجتماعية، والعسكرية.

وعليه، فإنّ الحديث عن الإستضعاف الإجتماعي، يوجب التطرق إلى الإستضعاف في العمل الصالح (وهو ما أشار إليه الإستاذ مطهري)، وهو يتمتع بأهمية بالغة. والإستضعاف في العمل الصالح ما هو إلا الإستضعاف في الإيمان والعمل الصالح والأمنية الدينية وضمان الأمن للمؤمنين لممارسة طقوسهم الدينية. صحيح أنّ الإستضعاف في الأمنية الدينية والإيمانية يمكن أن يتضمن القوّة الدينية، إلا أنّ أسباب الإستضعاف في الإستضعاف الإجتماعي تختلف عن

١. المبادرة بإجراء تعديلات مالية واقتصادية ومكافحة الفقر والتصدي للإحتكار والإستيلاء على رقاب الناس ومنع إكتناز المال، من أهم مسؤوليات الحكومات (حكيمي، بی تا، ج٣، ص ١٦٦).

أسباب الضعف في الإستضعاف في العمل الصالح. ففي الإستضعاف الإجتماعي، سوف تؤطر حالة الفرد المستضعف في إطار ضيق، لكن في الإستضعاف في العمل الصالح، لا تُضعف حالة الفرد الإجتماعية، وإنما حالة العمل الصالح والترويج للعمل الصالح وحتى إمكانية القيام بالعمل الصالح، تُضعف وتمارس ضدها ضغوط للنيل منها. ونظراً لهذه النقطة الهامة، يمكن النظر إلى الإستضعاف الحضاري، وبطبيعة الحال القوّة الحضارية، من منظور الباحث بسنديده، ليس فقط من ناحية غياب القوّة الإجتماعية، وإنما من زواية علمانية العالم المعاصر والحضارة المعاصرة التي ضيّقت الخناق على الإيمان والعمل الصالح في مجالات واسعة وعلى مستوى العالم بأسره. وفي ظل مثل هذه الحال، لا يجوز البحث عن القوة الإجتماعية مقابل الإستضعاف الحضاري، وإنما يجب البحث عن القوة الإجتماعية والحضارية الإيمانية والتمهيد للعمل الصالح المؤدي إلى التنمية البشرية وصناعة الإنسان المؤمن والسليم من كل المساوئ الأخلاقية. فالقوّة والتمكين الديني بهذا المعنى، يمكنها فقط إزالة الضعف الحضاري، ولا تقدر على الحيلولة دون الإستضعاف الحضاري (بمعنى الإستخفاف بالقوة). فهناك طريق واحد للتطرق إلى الإستضعاف الحضاري وهو بناء قوة حضارية وتكريس قوى المجتمع ورصد مَواطن القوة وبناء حضارة متمدنة.

٨. إمكانية الحضارة في حالة الإستضعاف

بناء على ورد في المقال، إذا قدمنا تعريفا مختلفاً من الإستضعاف يميّز بين «الضعف» و «الإستضعاف»، وأكّدنا على هذه النقطة بأنّ الإستضعاف لا يؤدي إلى الضعف في القوة الإجتماعية، أو الضعف في الإيمان والعمل الصالح، عند ذلك يمكن القول أنّ المستضعفين لهم قوة حضارية وعزّة قادرة على صناعة

حضارة كاملة. وفي مثل هذه الحالة التي تستمر فيها أعمال الإستضعاف، يمكن للمستضعفين، والمؤمنين الصمود أمام مؤامرات المستكبرين وصناعة القوة والإيمان، والعمل الصالح، وبناء حضارة عزيزة تعزّهم على مستوى العالم وتجعلهم أصحاب رأي بين الحضارات. هذا يعني أنّ المستضعفين إذا استطاعوا مواجهة الغضوط النفسية والصمود أمام المؤمرات، ونجحوا في الحيلولة دون إضعافهم، فعند ذلك يستطيعون صناعة حضارة حديثة والتمهيد لظهور المهدي المنتظر في ظل حضارة متقدمة وقادرة على صناعة عالم مفعم بالإيمان. فإن صنعوا مثل هذه الحضارة، فإنهم لا يمهدوا للحضارة الإيمانية والعمل الصالح فحسب، بل يتمكنوا من إزالة الضغوط النفسية وحملات التشويه والتخريب التي يمارسها ضدهم المستكبرون ويصبحوا قادرين على تغيير العالم نحو الأفضل ويستأصلوا جذور الإستبداد والإستكبار.

الجدير بالذكر أنّ الخروج من حالة الإستضعاف من منظور آيات القرآن، تقوم على سنن وتقاليد يجب معرفتها من خلال القرآن الكريم، وإدراجها في عملية صناعة الحضارة الدينية ومن هذه السنن والتعاليم الدينية تجدر الإشارة إلى: سنة «المنّة الإلهية»(يوسف، ٩٠)، وسنة «النجاة» (الأعراف، ٧٢)، والسنة «الأمل» (يوسف، ٨٧)، وسنّة «إخراج الحي من الميت والميت من الحي» (الروم، ١٩)، سنة «القليل والكثير» (الأنفال، ٢٦)، وسنة كشف الضُرّ (يونس، ٩٨)، وسنة إتمام النور وإتمام النعمة (البقرة، ٢٣٣). (فتهاجروا)، والقيام (أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ)، والصلاة (اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ)، والتمسك بحبل الله (وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)، والتقوى (إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا)، والثبات (فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً)، والغلظة والشدة عند القيام بالواجب (و لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً). كل هذه السنن يمكن إدراجها في صناعة الحضارة الإيمانية ذات النزعة الدينية.

خلاصة البحث والنتائج

الإستضعاف الشامل والحضاري يمكن أن يؤدي إلى الضعف الحضاري وزوال الحضارة؛ لكن هذا لا يعني أنّ المستكبرين يستطيعون دائماً إضعاف الحضارات الأخرى وإرغامها على الإنقياد لها. لهذا يمكن أن يكون الإنسان ضعيفاً ومعرضاً للتضعيف، وتمارَس ضدّه ضغوط قاسية للإستسلام، لكنّه لا يخضع لهذه الغضوط، ويشق طريقة نحو صناعة الحضارة والعزّة والإيمان. وقد يؤدي الإستضعاف إلى «الإستخفاف بالقوة»، لكنّه لا يؤدي بالضرورة إلى الضعف. ولهذا، إذا كان الإستضعاف بسبب المؤثرات الخارجية، فإنّ التضعيف يكون مرهوناً بإرادة المستضعفين والإنقياد للمستكبر أو عدم الإنقياد له. فممارسة الغضوط من قبل المستكبر إن كانت تواجه صمود المستضعفين، فإنّها سوف تؤتي بنتائج عكسية وتنقلب ضد المستكبرين وتساعد الضعفاء على صناعة حضارتهم. وعلى هذا الأساس، يمكن ألّا يكون الخلاص من الإستضعاف في حوزة المستضعفين وإرادتهم، لأنّ سبب الإستضعاف هو المستكبر نفسه، لكن الصمود أمام المستضعف والخلاص من الضعف والوهن، والأهم من هذا وذاك، ترسيخ الإيمان في القلوب وزرع بذوره في روح الإنسان، بيد المستضعفين وهذا من شأنه أن يخلّص المستضعفين من الذلّة والمسكنة ويساعدهم على صناعة الحضارة. ولهذا، في حال الإستضعاف، سيكون الطريق نحو «حضارة المستضعفين» طريقاً معبّداً بشرط أن تتضافر جهود المستضعفين ويصمدوا أمام الضغوط النفسية، والمؤامرات الفكرية، والثقافية، والإقتصادية ولا يسمحوا للمستكبر بإلقاء الضعف في قلوبهم وإيهامهم بالضعف والوهن ويصنع العقبات أمام سيرهم نحو الحضارة والتمدن والعزة. ففي حال الإستضعاف، يمكن للمستضعفين صناعة «القوة الإجتماعية»، و«القوة الإيمانية» (في مواجهة الضعف أو إستضعاف الإيمان والعمل الصالح)، ويسيروا نحو

«العزة الإجتماعية» و«العزة الإيمانية» وإن لم يظهر الإمام المهدي المنتظر. فنتاج ظهور المهدي المنتظر في حال قوة المسلمين إجتماعياً وحضارياً هو كمال هذه العزة والقدرة النابعة من الإيمان والعمل بالدين الكامل (الإسلام). فما لم يظهر المهدي المنتظر لا يمكن إن يتحقق الدين الكامل ولا مجال لتطبيق كامل تعاليمه وفرائضه. وما لم يتحقق الإسلام بالكامل، لا يمكن الحديث عن الحضارة الإسلامية المتعالية.

المصادر

* القرآن الكريم

١. الآلوسي، محمود بن عبدالله. (١٤١٥ق). روح المعانی فی تفسیر القرآن العظیم و السبع المثانی (ج١١و ١٣، المحققون: سناء بزیع شمس‌الدین و ابراهیم شمس‌الدین). بیروت: دار الکتب العلمیة، منشورات محمد علی بیضون.

٢. ابن‌اثیر الجزري، مبارک بن محمد. (١٣٦٧). النهایة فی غریب الحدیث و الأثر (ج٣). قم: مؤسسة اسماعیلیان للنشر.

٣. ابن‌طاووس، علی بن موسی. (١٤٢٠ق). طرف من الأنباء و المناقب. مشهد: نشر تاسوعا.

٤. بهرام‌پور، ابوالفضل. (١٣٧٨). نسیم حیات (ج٨) طهران: منشورات: هجرت.

٥. پسندیده، عباس. (١٣٨٦). نظریه استضعاف اجتماعی در تحلیل غیبت و ظهور. گفتمان مهدویت، العدد: ٨.

٦. الجوهري، اسماعیل بن حماد. (١٤٠٤ق/ ١٩٨٤م). الصحاح اللغه (ج٤). بیروت: دار العلم للملایین.

٧. الجیلاني، رفیع‌الدین محمد بن محمد مؤمن. (١٤٢٩ق/ ١٣٨٧). الذریعة إلی حافظ الشریعة (شرح أصول الکافی جیلانی) (ج١). قم: دار الحدیث.

٨. حکیمی، محمدرضا؛ حکیمی، محمد و حکیمی علی. (بی‌تا). الحیاة (المترجم: احمد آرام، ج٣). طهران: مکتب نشر الثقافة الإسلامیة.

٩. الخمیني، روح‌الله. (١٣٧٩). صحیفه نور (ج٩). طهران: وزارة الثقافة والمعارف الإسلامیة.

١٠. الراغب الأصفهاني، حسین بن محمد. (١٤١٢ق). مفردات ألفاظ القرآن. بیروت: دار الشامیة.

١١. الزمخشري، محمود بن عمر. (١٣٩٩ق/١٩٧٩م). اساس البلاغه. بيروت: دار صادر.
١٢. شريعتي، علي. (١٣٦٢). تحليلى از مناسک حج (إعداد: موسسة نشر أعمال علي شريعتي). طهران: الهام.
١٣. الشريف الرضي، محمد بن حسين. (١٤١٤ق). نهج البلاغة (صالح صبحى). قم: هجرت .
١٤. الطباطبايي، سيدمحمدحسين. (١٣٩٠ق). الميزان فى تفسير القرآن (ج٩). بيروت: مؤسسة الأعلمى للمطبوعات.
١٥. فضل‌الله، محمدحسين. (١٤١٩ق). من وحى القرآن (ج١٨) بيروت: دار الملاك.
١٦. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. (١٤١٥ق/ ١٩٩٥م). قاموس المحيط. بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد على بيضون.
١٧. فيض الكاشاني، محمد بن شاه مرتضى. (١٤١٥ق). تفسير الصافى (ج٤). طهران: مكتبة الصدر.
١٨. قرشي بنابي، علي أكبر. (١٣٧١). قاموس قرآن (ج٤). طهران: دار الكتب الإسلامية.
١٩. قطب، سيد ابراهيم حسين الشاذلي. (١٤٢٥ق). فى ظلال القرآن (ج٣ و ٥). بيروت: دار الشروق
٢٠. ليثى الواسطي، على بن محمد. (١٣٧٦). عيون الحكم و المواعظ (لليثى). قم: دار الحديث.
٢١. مطهري، مرتضى. (١٣٩٥). مجموعه آثار (ج١٥). طهران: صدرا.
٢٢. مكارم الشيرازي، ناصر. (١٣٧١). التفسير الأمثل (ج١٦ و ٢١). طهران: دار الكتب الإسلامية.